

القصائد المَشُوبَات

مخيمر صالح

هي سبع قصائد، ضمَّها كتاب أبي زيد القرشي جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام الذي جمع فيه أبو زيد القرشي سبع مجموعات في كل مجموعة سبع قصائد بينها قاسم مشترك، فكان أن ضمَّ الكتاب تسعاً وأربعين قصيدة، فهناك مجموعة "السموط" وهناك مجموعة المذهبات، فالنصفاً والملحمات، والمشوبات، وهكذا.... أما لماذا هي سبع في كل مجموعة وليست ثمانية مثلاً، فيمكن أن يكون أبو زيد متأثراً بمن سبقوه، فهناك المعلقات السبع، وهناك الجمهرات السبع؛ وقد يكون أبو زيد متأثر بما يشير به العدد سبعة في التراث العربي والإسلامي، فأيام الأسبوع (سبعة)، وعدد السموات سبع، والطواف حول الكعبة سبع مرات والسعي سبع، وهكذا.

أما ما تعنيه المشوبات، فيوضح ذلك أبو زيد القرشي نفسه إذ يقول "وأما المشوبات فهن سبع وهن اللائي شابهن الكفر والإسلام"^(١)، وهو قول دقيق، ينفي ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان أنه يقصد الشعراء الذين عاشوا في الجاهلية والإسلام، بل يقصد القصائد أو الشعر ولا يقصد الشعراء فالشعراء المخضرمون كثر لا ينتهون عند سبعة أو حتى عند خمسة عشر أو عشرين أو أكثر. ولا يقصد أبو زيد القرشي كذلك الكفر بمعناه الاصطلاحي بل يقصد أن بعض أفكار تلك القصائد ذات طابع جاهلي، أو منتزعه من قيم الجاهليين ومثلهم مثل أصحاب أفكار الخمر، والتغزل بالنساء أو العصبية الجاهلية. وبخاصة إذا عرفنا أن هذه الأفكار تتضمَّنُها فعلاً تلك القصائد، وبعضها أفكار إسلامية مثل التوحيد، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم وصور "الإيمان، والمثل والأخلاق الإسلامية" وهي موجودة كذلك في تلك القصائد أيضاً.

١- أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق: محمد علي الهاشمي، دار القلم،

دمشق، ١٩٨٦م، ج ١، ص ٣٨.

ولا بدّ أن نشير هنا إلى ملحوظتين: الأولى: أن أبا زيد القرشي قدّم مفهوماً عميقاً للشعر الإسلامي لا يتعلّق بالفترة الزمنية التي عاشها الشاعر، كأن يعيش في الفترة الإسلامية، بل يتعلّق بالفكرة التي يصدر عنها الشاعر، أو التي يعيشها في وجدانه وفي أحاسيسه ومشاعره، فكثير من الباحثين المحدثين عدّوا بعض الشعراء شعراء إسلاميين لكونهم عاشوا في الفترة الإسلامية فقط.

والثانية: أن فهمه للقوائد المشوبات، اعتمد على النص الشعري أولاً وأخيراً ولم يعتمد على حياة الشاعر وسلوكه، فلم يتأثر مثلاً بما عرف عن الشاعر من صحبة أو لقاء مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو حتى ثناءه له؛ أو ما عرف عن الشاعر من سوء سلوك كالحطّيبية، ولذلك فإن نقده جاء عملياً وليس نظرياً، كما هو عند بعض النقاد الأخلاقيين كابن حزم، والغزالي^(٢)، على الرغم من عدم وقوفه عند الصور الجاهلية والصور الجاهلية بشكل مفصّل. وحتى تتضح الأحكام التي نراها، سأتناول تلك القوائد بصورة أوضح، من حيث مضمونها وأفكارها وصورها، مركزاً على الصور الجاهلية، والصور الإسلامية والتي بسببها سمّاها أبو زيد القرشي بهذا الاسم، أقول سماها بهذا الاسم لأن طبيعة عمل أبي زيد في هذا الكتاب لم تتح لنا أن نرى تحليلاً لأفكار المشوبات، وما فيها من أفكار جاهلية وأخرى إسلامية كما ذكرنا.

وأولى المشوبات:

قصيدة النابغة الجعدي في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ يبدأ النابغة الجعدي قصيدته على طريقة الشعراء الجاهليين في تجريد شخصين (صاحبيه هنا) ومخاطبتهما طالبا منهما أن يغضّا من سيرهما، أو يسيرا في الهاجرة، وأن لا يجزعا من أحداث الدهر، وأن لا يندما على شيء فات، والبداية وإن بدت على طريقة الجاهليين إلا أن النابغة طوّر فيها وحوّر في معانيها، حتى جعلها ملائمة للفكرة الأساس التي قصدها وهي لقاءه بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالقرآن والهداية، يقول^(٣):

خليليّ عوجاً ساعة وتهجّرا	ولوما على ما أحدث الدهر أو ذرا
ولا تجزعا إن الحياة ذميمة	فخفّا لروعات الحوادث أو قرا
وإن جاء أمر لا تطيقان دفعه	فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا

٢- غسان عبد الخالق: الأخلاق في النقد العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م،

ص ٥٦، ٦٠.

٣- أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، ج ٢، ص ٧٤٧.

ألم ترياً أن الملامة نفعها قليل إذا ما الشيء ولى وأدبرا
تهيج البكاء والندامة ثم لا تغير شيئاً غير ما كان قدراً
أتيت رسول الله إذ قام بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرّة نيراً

ولا نشك أن أبا زيد القرشي عدّ تلك الأبيات إسلامية الأفكار والصور، وخاصة إيمان الشاعر بالقضاء والقدر، وثناؤه على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالقرآن ليهدي الناس ويرشدهم.

وتُصور الأبيات التالية ما كانت عليه حياة النابغة الجعدي مع المنذر بن المحرّق متنقلاً هنا وهناك يعيش عيشة الملذّات، يعاقر الخمر ويشرّبها. وعلى عكس الصورة الأولى، فإننا نشك كثيراً في أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم استمع إلى هذه الأبيات لسببين:

الأول: أن أبا زيد القرشي يقول: وأظن أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سمع القصيدة كلها من النابغة. والسبب الثاني أن هناك مخطوطة لأبي اليمن الكندي، هي إنشاد النابغة أمام النبي صلى الله عليه وسلم، أورد روايتها بطريقة الإسناد وانتهت إلى داود بن رشيد قال: حدّثنا يعلى بن الأشدق، قال سمعت النابغة يقول: أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم^(٤):

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإننا لنرجو فوق ذلك مظهراً

فقال: أين المظهر يا أبا ليلى؟ قلت: الجنّة، قال أجل إن شاء الله.

فلم يورد أبو اليمن الكندي ضمن المخطوطة الأبيات التي تصوّر الخمر وشربه لها، ولا الأبيات التي تتضمّن هجاء قبلياً فيه العصبية الجاهلية كما سنبيّن لاحقاً.

وأنا أوكد النفي لشيء مهمّ، وهو أن بعض الباحثين بنى عليها وعلى قصيدة حسان بن ثابت "الهمزية" التي يذكر حسان بن ثابت شربه للخمر، وأنه أنشدها على مسامع الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ يقول زكي مبارك "إن كعب بن زهير وحسان بن ثابت لم يتورّعا عن ذكر الخمر والنساء والتحرّس على ملاعب الشباب"^(٥). ويورد دليلاً على ذلك قول حسان بن ثابت:

فنشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما يئهنها اللقاء

٤- أبو اليمن الكندي: إنشاد النابغة أمام النبي صلى الله عليه وسلم، تحقيق: مخيمر صالح، مجلة المورد،

مجلد ٩، عدد ١، ١٩٩٠م، ص ١٨٠.

٥- زكي مبارك: المدائح النبوية في الأدب العربي، دار الشعب، القاهرة، د. ت. ص ٢٥.

والصحيح أن حسّان بن ثابت رضي الله عنه قال تعليقاً على البيت السابق عندما روجع في ذلك "هذا شيء قتلته في الجاهلية والله ما شربتها منذ أسلمت"^(٦).

ونشك في صور أخرى، وهي أن النابغة الجعدي أسمع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الأبيات التي تقطر عصبية جاهلية في الهجاء، وفيها هجاء مقذع مشين^(٧)، وفيها يقول النابغة:

وأعرضت فيها حقبة وتركتها لأبلغ عذراً عند ربي فأعذرا
وما قلت حتى نال شتم عشيرتي نفيل بن عمر الوحيد وجعفر
فإن ترد العليا فلست بأهلها وإن تبسط الكفين بالمجد تقصرا
إذا أدلج الأزدي أدلج سارفاً فأصبح مخطوماً بلؤم معززا

ومعروف أن الهجاء القبلي بالأخص عارضه الإسلام ونهى عنه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، إذ يقول: "إن من أعظم الناس فرية لرجل هاجى رجلاً فهجا القبيلة بأسرها"^(٨).

لامية كعب بن زهير:

من السهل القول إنه ما من قصيدة - قديمة أو حديثة - نالت شهرة ومنزلة مثلما نالته لامية كعب في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وجلّ المنزلة راجعة لعظمة المدوح وليس إلى عظمة القصيدة أو منزلة الشاعر، يظهر هذا من كثرة الشروح والمعارضات، والتشطير والتخميس للقصيدة، وخاصة في الأوساط الصوفية، وكثرة الاهتمام والإجلال راجع إلى تلك الأوساط، ولم تحظ القصيدة باهتمام ما في الفترة الأولى في صدر الإسلام والعصر الأموي.

إن عفو الرسول صلى الله عليه وسلم عن كعب - بعد أن أهدر دمه - ومعظم الذين أهدر دمهم عفا عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم - لم يكن بسبب القصيدة بل بسبب مجيئه تائباً، وجميع الأخبار تشير إلى أن كعب بن زهير قال قصيدته بعد أن عفا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم، بل إن الرسول الكريم لم يثن على كعب ولا دعا له كما حصل مع شعراء آخرين، أو مثلما أثنى على النابغة الجعدي، كقوله له بخ بخ أكثر من مرة، وقال لكعب بن مالك عندما قال شعراً^(٩):

٦- ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، الهند، ط ٢،

١٩٣٦م، ج ١، ص ١٢٧.

٧- خليل أبو ذياب: النابغة الجعدي، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧م، ص ٧٥.

٨- ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير، المكتب الإسلامي، بيروت، (د.ت): ج ٢، ص ٥٠.

٩- ديوان كعب بن مالك، تحقيق: سامي مكي العاني، مطبعة المعارف، بغداد، ط ١، ١٩٦٦م، ص ١٨٢.

جاءت سخينة كي تغالب ربها فليغلب مغالب الغلاب

”لقد شكرك الله على قولك هذا يا كعب“^(١٠)، وأثنى على حسن وقال له أكثر من مرة: ”اهجهم وروح القدس معك“، أما كعب بن زهير فلم يقل له شيئاً من ذلك. وقد ضخم بعضهم كثيراً من الخبر الذي جاء فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم ألقى بعباءته إلى كعب بعد أن أنشد قصيدته، ويمكن أن نتساءل منذ متى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقيم ملابسه صلى الله عليه وسلم هذه الأهمية؟ ولماذا لا يفهم هذا الفعل على أنه محاولة تأليف قلب كعب بن زهير؟ والرسول الكريم قد علم بلا شك تردد كعب أكثر من مرة في إسلامه، وأنه جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن خاف على حياته بعدما أخبره أخوه بجير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أهدر دمه. يقول^(١١):

تنعى الوشاة بجنبها وقولهم
وقال كل خليل كنت آمله
إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول
لا ألفتك إنني عنك مشغول
أنبئت أن رسول الله أوعدني
والعفو عند رسول الله مأمول

أما فيما يتعلق بالقصيدة فإننا لا نرى هذا الاهتمام أو الأثر في القرون الأولى، ولذلك فإننا نرى أن تصنيف أبي زيد القرشي للقصيدة على أنها ضمن المشويات يعدّ من أقدم محاولة لفهمها فهماً دقيقاً، فهي ليست قصيدة إسلامية صرفة بل يشوبها بعض الأفكار الجاهلية. ولم توجد تلك الملحوظة عند الذين تحمّسوا لها أي محاولة للدفاع عن القصيدة، ويبدو أنهم صرفوا أذهانهم إلى الجزء الخاص بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وحتى هذا القسم فإننا لم نجد أحداً دافع عن بعض الهنات التي وقع فيها كعب بن زهير. إن نظرة أبي زيد القرشي إلى هذه القصيدة بهذه النظرة الناقدة، بغض النظر إلى قائلها، أو إلى المدوح تجعلنا نعدّ أبا زيد القرشي أول من نظر إلى الشعر الإسلامي على أنه شعر فكرة وليس شعر فترة، وأنه سبق ابن حزم والغزالي في نظرتهم الأخلاقية إلى الشعر على ما ذكرنا سابقاً.

أما من المحدثين، فإن الدكتور زكي مبارك يعدّ أول ناقد نظر إلى لامية كعب بن زهير نظرة موضوعية غير متأثر بالنظرات التي أحاطتها بشيء من التعظيم والتبجيل، فقد ذكر الدكتور زكي مبارك أن مدح كعب للرسول صلى الله عليه وسلم لا يختلف عن مدح ملك من الملوك، فهي قصيدة

١٠- ابن هشام: السيرة النبوية، طبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٥م، ج ٢، ص ٢١٦.

١١- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ج ١، ص ٢٩٧.

جاهلية تغلب عليها قوة السبك، ولكنها تكاد تخلو من روح الدين الجديد، فإنه يبدو أن كعبا لم يمدح الرسول إلا لينجو من الموت^(١٢).

إنّ المدخل لفهم قصيدة كعب بن زهير هو أنّ الشاعر انتابه شعوران مختلفان، الأول ظهر في أبيات القصيدة الأولى التي تشمل المقدمة الغزلية، ووصف الناقة، وشعوره بابتعاد سعاد عنه، ولكن قلبه ظلّ معلقاً بها مشغولاً بها، على الرغم من أنها تخلف مواعيدها، يقول^(١٣):

بانّت سعاد فقلبي اليوم متبول متيّم إثرها لم يجز مكبول
وما سعاد غداة اليبين إذا رحلوا إلا أغنّ غضيض الطرف مكحول
واهاً لها خلة لو أنها صدقت موعودها أو لو أن النصح مقبول

إن التعلّق بسعاد يتعمّق أكثر، إذا أخذنا بما ذكره بعض الباحثين، برمزية^(١٤) الأسماء في مقدّمات القصيدة الغزلية، فسعاد، هي السعادة التي ابتعدت عنه، وفارقتة وظلّ قلبه معلقاً بها، وبصورة أوضح فهذه الحسناء هي الجاهلية كما يقول وهب رومية^(١٥)، إذ ظل كعب متعلقاً بها كما تعلق بسعاد. أما الشعور الثاني، فهو خوفه من الموت بعدما أكد له أخوه بجير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أهدر دمه، فجاء الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وقد أعدّ مديح الرسول صلى الله عليه وسلم في ذهنه قبل أن يلتقي بالرسول صلى الله عليه وسلم. ومما يدلّ على ذلك أن صيغ جميع الأفعال جاءت بصيغة الماضي، بل إنه يصوّر أموراً حدثت معه ومع غيره قبل أن يأتي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، مثل: تنعى الوشاة...، وقال كل خليل...، أنبئت... وهكذا.. ولذلك ربّما يمكن القول بأنه جاء مدحه للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وسيلة وليس غاية، وهي نجاته وسلامته من القتل، فطرق أفكاراً إسلامية تتعلق بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم فجاءت القصيدة غير ناضجة من حيث فكرتها الإسلامية.

وكلّ هذا كان وراء كثير من المآخذ التي أخذت على قصيدة كعب بن زهير وأول مأخذ هو ما أخذه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عليه عندما قال^(١٦):

١٢- زكي مبارك: المدايح النبوية في الأدب العربي، ص ٢٥.

١٣- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ج ٢، ص ٢٨٩.

١٤- نصره عبد الرحمن: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٠م، ص ١٥٥.

١٥- وهب رومية: قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣م، ص ١٨.

١٦- جمهرة أشعار العرب، ج ٢، ص ٧٩٦.

إن الرسول لنور يستضاء به مهتد من سيوف "الهند" مسلول
 فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم قل: من سيوف الله، وهذا يذكرنا بأن الرسول
 صلى الله عليه وسلم لم يكن يتجاوز عن أي شاعر خرج على الفكرة الإسلامية، مثلما حصل مع كعب
 بن مالك الذي أثنى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في أكثر من موقف، ولكنه عندما قال:
 مدافعنا عن "جذمننا" كل فخمة مذربة فيها القوانس تلمع^(١٧)
 قال له الرسول صلى الله عليه وسلم أيجوز أن تقول ديننا؟ فقال نعم وسرّ كعب بن مالك
 بذلك التوجيه.

ومن المآخذ التي أخذت على كعب بن زهير، ما أخذه المهاجرون عليه عندما مدحهم في
 القصيدة نفسها في أبيات منها^(١٨):

في عصابة من قريش قال قائلهم	ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف	عند اللقاء ولا ميل معازيل
يمشون مشي الجمال البزل يعصمهم	ضرب إذا عردّ السود التنايل

فقال المهاجرون: ما مدحتنا إذا لم تمدح الأنصار. ويمكن أن نقف عند مآخذ أخرى في
 قصيدة كعب بن زهير لا تتفق مع كونها قصيدة "إسلامية"، وجل هذه المآخذ تتعلق بصورة الرسول
 صلى الله عليه وسلم، ومنها أنه شبهه بالضرغام الذي أكله من لحوم البشر إذ يقول^(١٩):

ولهو أهيب عندي إذا أكلمه	وقيل إنك منسوب ومسؤول
من ضرغم من ضراء الأسد مخدرة	ببطن عثر غيل دونه غيل
يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما	لحم من القوم معفور خراذيل

وقد أفاض جاسر أبو صافية في تتبع العيوب التي وقع فيها كعب بن زهير^(٢٠)، سواء أكانت عيوباً
 معنويةً أو لفظيةً، منطلقاً من أن هذه المآخذ أو العيوب تؤكد أن القصيدة ليست لكعب بن زهير أصلاً
 بسبب اختلاف مستواها عن مستوى القسم الغزلي في قصيدة كعب، غير أنني أرى أن هذه العيوب

١٧- ديوان كعب بن مالك، ص ٣٢٣.

١٨- جمهرة أشعار العرب، ج ٢، ص ٧٩٧.

١٩- جمهرة أشعار العرب، ج ٢، ص ٧٩٧.

٢٠- السيد إبراهيم محمد جاسر أبو صافية: قصيدة بانة سعاد وأثرها في التراث العربي، مجلة دراسات،
 المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م، ص ٧٨، ٧٩.

أَوِ المآخذ التي وقع فيها كعب بن زهير تؤكد أن القصيدة له، لأن مثل هذه الهنات تشير إلى أن كعباً بن زهير قال هذا القسم الخاص بمدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ولما تنضح تجربته الإسلامية بعد، من حيث الفكرة الإسلامية، ومن حيث مدحه لشخصية مثل شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. وتقتضي الموضوعية أن نذكر أن كعب بن زهير قد أجاد في بعض صور مديحه للرسول صلى الله عليه وسلم مثل قوله في تصوير عفو الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، عندما يقول:

أنبئت أن رسول الله أو عدني والعفو عند رسول الله مأمول^(٢١)

وهي صورة أعجب بها طه حسين عندما قال عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم "فوعيده مخيف ولكن الأمل من ورائه، لأن صاحبه هو النبي الذي عرف بالعفو والحلم والرحمة وسعة الخلق"^(٢٢). ومثل قوله في تصوير شجاعة المهاجرين:

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا
لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل^(٢٣)

أما المشوبة الثالثة:

فهي مشوبة القطامي وهو شاعر أموي لم يعيش في الجاهلية قط، مما يؤكد أن أبا زيد لم يعد شعراء المشوبات من الشعراء المخضرمين فقط، ولم يكن الزمان هو المعيار، بل كان المعيار الدقيق هو الأفكار. بدأ الشاعر مشوبته على طريقة الجاهليين بمخاطبة الأطلال وتصوير تغييرها، وتبديلها مع الزمان، ليقوده إلى الاعتبار والتفكير فيما آلت إليه الأطلال. يقول:

إننا محيوك فأسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالبت بك الطول
أنني اهتديت لتسليم على دمن بالغمر غيرهن الأعصر الأول
فهن كالحلل الموشى ظاهرها أو كالكتاب الذي قد مسه بلل
كانت منازل منّا قد تحلّ بها حتّى تغير دهر خائن خبل^(٢٤)

وقاده تغير الديار، وتبديلها إلى التأمل في الحياة والعيش والناس، ومن بينهم المحبوبة ومزج كل ذلك بالحكمة فكان التأمل قد أوصله إلى الحكمة وذكر محبوبته "عليّة".

- ٢١- جمهرة أشعار العرب، ج ٢، ص ٧٩٦.
٢٢- طه حسين: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٧٠م، مجلد ١، ص ٤١٦.
٢٣- جمهرة أشعار العرب، ج ٢، ص ٧٩٧.
٢٤- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ج ٢، ص ٨٠.

ليس الجديد الذي تبقى بشاسته
والعيش لا عيش إلا ما تقرّبه
والناس من يلق خيراً قائلون له
قد يدرك المتأني بعض حاجته
أضحت عليّة يهتاج الفؤاد لها
وللرواسم فيما دونها عمل^(٢٥)

ونرى أن هذه المقدّمة وإن كانت من تقاليد الشعراء الجاهليين، إلا أنها لم تكن التي جعلت
أبا زيد القرشي يعدّ قصيدة القطامي من المشوبات، وإنما تلك الأبيات التي يصف فيها الشاعر لهوه
وعبثه وشربه للخمرة، إذ يقول^(٢٦):

وقد أبيت إذا ما شئت بات معي
وقد تباكرني الصهباء ترفعها
على الفراش الضجيع الأغيّد الربل
إليّ لينّة أطرافها ثمل

ويندهش الدارس عندما يرى باحثاً آخر لا يجد - كما يقول - أي فكرة جاهلية في هذه
القصيدة تنتمي إلى عالم الكفر، إذ يقول: "فإننا لا نجد فيها اختلاطاً بين الكفر والإسلام، بل القصيدة
من أوّل بيت فيها إلى آخر بيت يمدح الإسلام والمسلمين ولا نجد فيها مطلقاً أي شيء ولو لمجرد
التلميح عن الكفر والكفار، بل هي قصيدة إسلامية بحتة"^(٢٧).

أما الصور الإسلامية التي تضمّنتها القصيدة فظهرت بشكل صريح واضح في مدحه
عبد الواحد بن أبي عثمان والي المدينة، حيث مدحه و مدح قريشاً بمعاني إسلامية ركّز فيها على
نصرة الإسلام، ونصرة الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ يقول^(٢٨):

إن ترجعي من أبي عثمان منجحةً
أهل المدينة لا يحزنك شأنهم
أما قريش فلا تلقاهم أبداً
إلا وهم جبل الله الذي قصرت
قوم هم ثبتوا الإسلام واتبعوا
فقد يهون على المستنجع العمل
إذا تخطأ عبد الواحد الأجل
إلا وهم خير من يحفى وينتعل
عنه الجبال فما ساوى به جبّل
قول الرسول الذي ما بعده رسل

٢٥- المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٠٥.

٢٦- المصدر السابق، ٨١٠.

٢٧- زكي عابدين: القطامي حياته وشعره، دار المعارف، ١٩٨٦م، ص ٣٧٣.

٢٨- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ج ٢، ص ٨١٠.

أما مشوبة الحطيئة :

فتبدأ بمقدمة غزلية بـ "أمامة"، مصوراً لقاءه بها خيلاً في المنام كغيره من شعراء الجاهلية، مصوراً أمامة بأنها امرأة مصونة تشبه الظبية، تنتقل من مكان إلى آخر صيفاً وخريفاً، يقول (٢٩):

نأتك أمامةً إلا سؤلاً	وأبصرتَ منها بعين خيالا
خيالاً يروعك عند المنام	ويأبى مع الصبح إلا زوالا
كناينة دارها غريبة	تجدّ وصالا وتبلى وصالا
تصيف ذروة مكنونة	وتبدو مصاب الخريف الحيالا

وظاهر أن هذه المقدمة الغزلية تمثل الفكرة الجاهلية كما فهمها أبو زيد القرشي، وهي تدخل ضمن الغزل بالمحبة، الذي أخرجه أبو زيد القرشي وغيره من عالم الشعر الإسلامي وأفكاره. أما الأفكار الإسلامية، فقد ظهرت في القصيدة في ذلك الجزء الذي يمدح فيه الحطيئة عمراً بن الخطاب رضي الله عنه، بمعان إسلامية، مستقاة من القرآن الكريم، ولذلك أكثر من الصور الدينية لعمر بن الخطاب من عدل وكرم ووفاء بالعهد إذ يقول (٣٠):

إلى حكمٍ عادلٍ حكمه	فلما وضعنا لديه الرّحالا
أمين الخليفة بعد الرسول	وأوفى قريش جميعا حبالا
وأطولهم في الندى بسطة	وأفضلهم حين عدوا فعالا

وواضح أن القصيدة تصور علاقته المتوترة مع الزبرقان الذي هجاه الحطيئة أكثر من مرة، لأنه يأمل من عمر أن لا يسمع قول الوشاة، وهي صورة تذكّرنا بقصيدة كعب بن زهير، في تصوير - وهي إحدى صورها - الوشاة الذين وشوا للرسول صلى الله عليه وسلم عن كعب، ويأمل أن لا يسمع منهم وأن لا يصدقهم عمر، ويأمل بعفوه بعد أن أتاه معتذراً، كما أمل كعب بن زهير ذلك أيضاً يقول (٣١):

أتنتني لسانٌ فكذبتها	وما كنت أحسبها أن تقالا
بأن الوشاة بلا عذرة	أتوك فقالوا لديك المحالا
فلا تسمعن بي قول الوشاة	ولا توكلني - هديت - الرّجالا

٢٩- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ج ٢، ص ٨١٦.

٣٠- المصدر السابق، ج ٢، ص ٨١٩.

٣١- المصدر السابق، ج ٢، ص ٨١٩، ٨٢٠.

أما مشوبة عبد الله بن الأحمر:

فتبدأ بمقدمة مزج فيها بين ذكر الشباب الذي مضى والآمال التي ذهبت، وذكر الديار التي اندثرت معالمها، فكأن الشاعر يقيم علاقة بين الشباب الذي مضى، ومعالم الديار التي مضت أيضاً، وهي مقدمة قديمة ردها كثير من شعراء الجاهلية، يقول (٣٢):

بان الشبابَ وأفنى ضعفك العمر	لله درك أي العيش تنتظرُ
هل أنت طالب شيء لست مدركه	أم هل لقلبك عن آفاه وطرُ
أم كنت تعرف آيات فقد جعلت	آياتُ الفك بالودكاء تدثر
أم لا تزال ترجي عيشة أنفأ	لم ترجُ قط ولم تكتب بها زُرُ

أما العنصر الإسلامي في القصيدة فيظهر في صورتين: الأولى: مدحه لوالي المدينة، إذ ركز فيه على الفضائل والصفات الدينية المعروفة، من مثل إنه مغيث الناس، وأنه يقضي حوائجهم، كقوله (٣٣):

وانجي فإني أخال الناس في نكظ	وإن يحيى غياث الناس والعصر
إن قمت يابن أبي العاصي بحاجتنا	فما لحاجتنا وردٌ ولا صدر

ويركز الشاعر في الصورة الثانية في مدحه لوالي المدينة على صفة الحزم ودفع الظلم ورفع الجور، وهي صفة تتناسب مع ما سيطلبه منه من أن يكون حازماً مع عمال الصدقات الذين ظلموا الناس، وساموهم أقسى صنوف العذاب وضربوهم بالسياط وأخذوا الصدقات زوراً وتدليساً، ومن ذلك قوله (٣٤):

إني أعوذ بما عاذ النبيّ به	وبالخليفة إن لم تُقبل العُدُرُ
من مترفيكم وأصحاب لنا معهم	لا يعدلون ولا تأبى فننتصر
ولا تقر علينا جور مظلمة	لم تبين بيتاً على أمثالها مضر
يكسونهم أصبحيات محدرجةً	إن الشيوخ إذا ما أوجعوا ضجروا
حتى يطيبوا لهم نفساً علانية	عن القلاص التي من دونها مكروا
ملّوا البلادَ وملتهم وأحرقهم	ظلمُ السعاة وباد المال والشجر

٣٢- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ج ٢، ص ٨٤٢.

٣٣- المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٤٨، ٨٤٩.

٣٤- المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٤٩، ٨٥٠.

أدرك نساءً وشيباً لا قرارَ لهم إن لم يكن لك فيما قد لُقوا غير
فابعث إليهم فحاسبهم محاسبة لا تحفَ عينٌ على عَيْنٍ ولا أثرٌ

أما مشوبة تميم بن مقبل :

الذي عاش في العصر الأموي فتتضمّن الفكرة الجاهلية التي تبدأ فيها، إذ بدأت بمقدمة
غزلية (لبليلى) وزيارة طيفها كما كان يبدأ بعض الشعراء الجاهليين. إذ يقول(٣٥):

طاف الخيال بنا ركباً يمانياً ودون ليلى عوادٍ لو تعدّينا
منهن معروف آيات الكتاب وقد تعتادُ تكذبُ ليلى ما تُثَمِّينا
لم تسر ليلى ولم تطرُق بحاجتها من أهل ريمان إلا حاجةً فينا

غير أن أهم فكرة كانت وراء تصنيف أبي زيد القرشي لمشوبة تميم بن مقبل، ليست المقدمة
الغزلية، وإنما ما جاء في البيت الثاني، إذ أن محقق كتاب الجمهرة يشرح البيت بقوله: "إن آيات
الكتاب" أي آيات القرآن الكريم التي تنهى عن الفواحش يتمنى أن تغيب عن باله، وإلا تشغله عن
ليلى، ولعل مثل هذا القول مما دعا ابن سلام إلى القول فيه: وكان ابن أبي مقبل جافيا في الدين(٣٦).

أما الفكرة الجاهلية الأخرى في قصيدة تميم بن مقبل، فهي هجاؤه للنجاشي الشاعر، وأخاه
خديجاً مهدداً متوعداً(٣٧):

أبلغ خديجاً بأنّي قد كرهت له بعض المقالة يهدينا فتأتينا
أراك تجري إلينا غير ذي رَسَنٍ وقد تكون إذا نُجربك تعنينا
وقد بريّت قداحاً أنت مرسلها ونحن راموك فانظر كيف ترمينا
إننا مشائيم إن مارست جاهلنا يوم الطعان وتلقانا ميامينا
وعاقِد التاج أو سام له شَرَفٌ من سُوقة الناس نالته عوالينا

وواضح أن هذا الهجاء المقذع من الموضوعات التي منعها الإسلام، ووقف منها موقفاً صارماً.
أما التساؤل المهم الذي تثيره هذه القصيدة، فهو: أين الفكرة الإسلامية في هذه القصيدة؟ إن
البحث الدقيق في هذه القصيدة على العنصر أو الصورة الإسلامية، لا يوصل إلى جواب، فلا نجد في
هذه القصيدة أي بيت يشي بفكرة أو بصورة إسلامية، ومن هنا فإن الإجابة لا تخرج عما اعتدنا عليه

٣٥- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ج ٢، ص ٨٥٥.

٣٦- المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٦٥.

٣٧- المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٦٥.

في مثل هذه الحالات، وأهمها لقد سقطت أبيات الفكرة الإسلامية من هذه القصيدة، أو أن أبا زيد القرشي لم يكن مصيباً عندما عدّ قصيدة تميم بن مقبل مشوبة ضمن المشوبات التي صنّفها، وأنه وقع في تصنيف قسريّ عندما عد المشوبات سبعة.

ومثل قصيدة تميم بن مقبل، مشوبة الشماخ، والتي على الرغم من طولها إلا أنها خلت من الفكرة الجاهلية إلا في ثلاثة أبيات بدأ بها قصيدته، تماما كما كان يصنع بعض الجاهليين، إذ صور الديار بأنها عفت وخلت من أي مظهر من مظاهر الحياة والبقاء فمصير من يعيش في تلك الديار الهلاك، يقول:

عفا بطن قَوِّ من سليمان فعايزُ	فذاتُ الصفات فالمشرفات النواشر(٣٨)
ومرتبة لا يُستقالُ بها الردى	تلافي بها حلّمي عن الجهل حاجزُ
فكل خليل غيرَها ضم نفسه	لوصل خليل صارم أو معارز(٣٩)

والقصيدة - على طولها - لا يوجد فيها غير هذه الأبيات القليلة التي تنتمي إلى الفكرة الجاهلية، ومثلما لم نجد الفكرة الإسلامية في قصيدة تميم بن مقبل السابقة، لم نجد الفكرة الإسلامية في أي بيت من أبيات قصيدة الشماخ، وتفسيرنا ذلك لا يخرج عن التفسيرات التي سقناها في قصيدة ابن مقبل السابقة.

* * * *

٣٨- أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، ج ٢، ص ٨٢٤، وقوّ وعالز وذات الصفا كلها مواضع لبني ذيبان.

٢٩- المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٦٦.